

لطيفة الكلام

في أول كل عام

بقلم

خادم العلم الشريف

أبي الفضل العباس أحمد بن منصور قزطام

كان الله له ولوالديه وللمن علمه ومن كان له فضل عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، خالق المكان ومقدّر الزمان، من
ألزَمَ كلّ من دُونَهُ مراتب النقصان، وتفرّد سبحانه بالغنى عن من سواه،
فكان حقّاً أهلاً للتوحيد والإعظام، والصلاة والسلام على سيدنا
ومولانا محمد أطهر إنسان، وأشرف من حلّ بمكان وجرى عليه زمان،
وعلى آل بيته النجوم الحسان، وصحبه ذوي العلم والإكرام، وكلّ من
سار على هديه واقتفى بإحسان، وبعد،،،

فإن الله تعالى خلق المكان والزمان، وجعلهما علامة الحدوث
والنقصان، وخلق الليل والنهار، وجعل في تعاقبهما مرور الأيام،
وانقضاء الأعمار والأزمان، فكانا حقّاً آيتين عظيمتين لمن أحسن النظر
والإمعان، ثم خلق سبحانه الشمس والقمر، وجعل لكل منهما منازل
وسنن، وفي تعاقب تلك المنازل أنيطت الأحكام، فمن حكمته تعالى أن
جعل للشمس أحكاماً وكذا للقمر أحكاماً، لا ينبغي لمسلم جهلها، ولا
لجاهل تغافلها، إذ إنّها سنة الأكوان.

قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ﴾ الآية 12 من سورة الإسراء "، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ﴾ الآية 5 من سورة يونس "، وإنَّ مما أنيط بالشمس أحكام اليوم من صلاة وصيام، فالصوم مؤقت بمدة النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ الآية 187 من سورة البقرة "، وكذا الصلاة تتعلق بطلوع الفجر، وطلوع الشمس، وزوالها، ومصير ظلِّ الشيء مثله، ثم غروبها، وغروب الشفق، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ الآية 78 من سورة الإسراء "، وفي الحديث عن سيدنا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَمَّنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ، فَصَلَّى بِي الظُّهَرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ وَكَانَتْ قَدَرُ الشَّرَاكِ، وَصَلَّى بِي

العصر حين كان ظلُّه مثله، وصَلَّى فِي يََعْنِي الْمَغْرِبِ حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمُ،
وَصَلَّى فِي الْعِشَاءِ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى فِي الْفَجْرِ حِينَ حَرَّمَ الطَّعَامُ
وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ صَلَّى فِي الظُّهْرِ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَهُ،
وَصَلَّى فِي الْعَصْرِ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ، وَصَلَّى فِي الْمَغْرِبِ حِينَ أَفْطَرَ
الصَّائِمُ، وَصَلَّى فِي الْعِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلَّى فِي الْفَجْرِ فَأَسْفَرَ، ثُمَّ
التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: "يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَقْتُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ
هَذَيْنِ الْوَقَّتَيْنِ" رواه الشافعي وأحمد أبو داود واللفظ له، والترمذي وغيرهم .

ثم من حكمته تعالى أن أناط بالقمر معرفة السنين والشهور، ثم ما
يترتب على تلك المعرفة من أحكام البلوغ والتكليف، والصوم والفطر،
والحيض والنفاس وغيرها، قال المولى تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ
هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية 189 من سورة البقرة ، فأخبر أن الأهلة
مواقيت للناس عموماً، وخَصَّ الحج لمزيد الاهتمام، وفي الحديث عن
سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: (أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ رَمَضَانَ، فَضَرَبَ بِيَدَيْهِ فَقَالَ:
الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا ثُمَّ عَقَدَ إِبْهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ - يعني تسعة
وعشرين يوماً-، فَصُومُوا لِرُؤُوسِهِ - أي الهلال- وَأَفْطَرُوا لِرُؤُوسِهِ، فَإِنْ

أُغْمِي عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ ثَلَاثِينَ" رواه أحمد والبخاري مسلم واللفظ له، وأبو داود والنسائي وغيرهم"، وعن سيدنا عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنهما قال: قال سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأُظْلَةَ لَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) رواه البزار في مسنده والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک وصححه، ورواه الخطيب البغدادي في كتاب القول في علم النجوم والبيهقي في الكبرى عن ابن أبي أوفى وأبي الدرداء وأبي هريرة"، والأدلة في هذا المقام كثيرة جداً بكثرة الأحكام التي يحتاجها الناس في مصالح دينهم ودنياهم من صومهم وفطرمهم، وحجهم وزكاتهم، ونذورهم وكفاراتهم، وعدة نساءهم ومُدد إيلائهم، ومُدد إجازاتهم، وحلول آجال ديونهم وغير ذلك مما هو مؤقَّت بالشهور والسنين.

هذا وإنَّ السنة القمرية كما هو معلوم تتكون من اثني عشر شهراً قمرياً، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية 36 من سورة التوبة"، وهذه الشهور على الترتيب هي: شهر المحرم، شهر صفر، شهر ربيع الأول،

شهر ربيع الثاني، شهر جمادى الأولى، شهر جمادى الآخرة، شهر رجب، شهر شعبان، شهر رمضان، شهر شوال، شهر ذي القعدة، وشهر ذي الحجة.

ومما هو حريٌّ بالذكر في هذا المقام أن ننبّه على وجوب معرفة هذه الشهور لما يتعلق بها من أحكام عينية على كل مكلف، وإن ما أدى إلى الواجب فهو واجب، فيجب علينا أن نعلّمها ونعلّمها أبناءنا وأحبابنا، إذ عليها مدار طاعاتهم ونجاتهم، وإن من العجيب أن نرى الناس هذه الأيام يجيدون معرفة السنين والشهور الرومية ويتقنون حسابها لما يتعلق بذلك من مصالحهم الدنيوية، وذلك مشروع لهم، إلا أنهم يغفلون في حالهم ذاك عن معرفة السنة القمرية وشهورها، وبذلك يقعون في المحذور لغفلتهم عن أسباب طاعاتهم وبالتالي غفلتهم عن مناطها وهو سرُّ سعادتهم ونجاتهم.

ثم إن المولى سبحانه وتعالى ببالغ رحمته وعظيم حكمته جعل لعباده المؤمنين في كل يوم وليلة لطيفة من وظائف طاعته، منها ما كان فرضاً كالصلوات الخمس، ومنها ما يندب من غير افتراض كنوافل الصلاة والذكر وغيرها، وجعل في شهور الأهلة كذلك، فجعل فيها الصيام

والزكاة والحج، منها ما هو مفروض كصوم رمضان وحجة الإسلام، ومنها ما يندب كصوم عرفة وعاشوراء وشعبان وشوال والأشهر الحرم وغيرها.

ثم فصل سبحانه وتعالى بعض الشهور على بعض فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ الآية 185 من سورة البقرة "، وقال سبحانه: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ الآية 197 من سورة البقرة "، وقال أيضاً: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية 36 من سورة التوبة "، كما جعل سبحانه بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، ففصل يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع، ويوم عرفة على أيام السنة، وليلة القدر على سائر الليالي، وهكذا سنة المفاضلة بين الخلق في كل شيء لحكمة أرادها المولى أن تكون لنا عبرة في كل حال.

وإنه ما من موسم إلا وفيه نفحة لا ينبغي لعاقل أن يغفلها أو يتهاون فيعرض عنها، ولعل من أهم تلك الوظائف التي ندركها أول العام، ونتعرض إليها في هذا المقام، هي وظيفة التوبة مما مضى، ونصب راية

الحق والهدى، والجِدِّ في إصلاح أمرنا قبل الرّدى، إذ ما زلنا في فسحة الحياة التي قد تنتهي إذا ما العُمر انقضى، فعادة التاجر الحاذق أنه في كلّ عام يدبّر حسابه فينظر هل كان ربحٌ أم كان غير ذلك، فإن كان ربحٌ أظهر الجِدَّ لطلب المزيد، وإن لم يكن كذلك شمّر عن ساعده ساعياً إلى تغيير حاله، أمّا إن كان خاسراً في تجارته، فالأمر عليه صعبٌ حينئذٍ، لكنّه مع كل ذلك يعلم أنه ما زال في فسحة العمل قادراً على العمل والاجتهاد والعطاء، فلا ييأس، بل يرفع همته ليصلح شأنه ويعوّض ما فاتته، هذا هو الحال في أمور الدنيا، فما بالنا نغفل عن أمور آخرتنا ومعادنا، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الآيات: 16-17 من سورة الأعلى.

إن من أجلّ ما يفعله المرء في أوّل عامه أن يزن عمله بميزان الرضا، وينظر حاله هل كان من أهل الرضا، فإن كان راجحاً فليحمد الله تعالى وليشكر، وليس شكراً يكون إلا بطلب المزيد، وإن كان غير ذلك تاب وأتاب، وأحسن العمل في كلّ باب، لعل الله تعالى يصلح شأنه ويكرمه بجزيل الثواب.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينور أعمارنا بطاعته، وأن
يكرمنا بحسن التوبة والإنابة فنكون أهل محبته، وأن يمن علينا في
الدنيا بصحبة الصالحين من أحبّته، ويختتم لنا بالخير فنكون أهلاً لجنته
وجميل مثنته ورحمته، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، اللهم آمين
يا رب العالمين.

وكتب

خادم العلم الشريف

أبو الفضل العباس

أحمد بن منصور قرطام

كان الله له ولوالديه ولمن علمه ومن كان له فضل عليه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلّ اللهم على سيدنا محمد

وعلى آله الطيبين الطاهرين

إصدار



المركز الوطني للبحوث والدراسات

التابع لآل البيت - فلسطين

الموقع الالكتروني: www.alalbait.ps